الحملة الصليبية الرابعة

توفِّي السلطان صلاح الدين الأيوبي في (27 من صفر 589هـ/ 4 من مارس 1193م) بقلعة دمشق بعد أن أُصيب بحمَّى؛ فحزن المسلمون كبارًا وصغارًا، وتنفّس الصليبيون الصعداء، وعوَّلوا على قلة خبرة أبنائه من بعده. وقد حدث ما كانوا يؤمِّلونه؛ إذ انشغل ورثة صلاح الدين بالصراعات الداخلية على الولايات والمدن، وقضوا تسع سنوات في مؤامرات داخلية، حتى وصل الأمر إلى انفصال الشام عن مصر مرةً أخرى في ضربة قاصمة للوَحْدة الإسلامية.

لذا فإنه في السنة التي تولى فيها السلطان العادل الأيوبي شقيق صلاح الدين منصب السلطنة الأيوبية في القاهرة، أي سنة 596هـ/ 1200م، كانت فكرة الاستيلاء على بيت المقدس وضرب مصر لا تزال تشغل بال الأوربيين.

وحين رأى الصليبيون أن السلطان العادل يفرض نوعًا من الوحدة على أبناء البيت الأيوبي، خافوا أن يعودوا إلى الموقف المرعب الذي عانوا منه كثيرًا أيام صلاح الدين الأيوبي؛ لذا بدؤوا يفكرون في حملة صليبيةٍ جديدة.

**دور البابوات في الحملات الصليبية**

البابا **إينوسنت الثالث** ([1160](https://ar.wikipedia.org/wiki/1160) أو [1161](https://ar.wikipedia.org/wiki/1161) ـ [16 يوليو](https://ar.wikipedia.org/wiki/16_%D9%8A%D9%88%D9%84%D9%8A%D9%88) [1216](https://ar.wikipedia.org/wiki/1216)) هو [بابا الكنيسة الكاثوليكية](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A8%D8%A7%D8%A8%D8%A7_%D8%A7%D9%84%D9%83%D9%86%D9%8A%D8%B3%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%A7%D8%AB%D9%88%D9%84%D9%8A%D9%83%D9%8A%D8%A9) من [8 يناير](https://ar.wikipedia.org/wiki/8_%D9%8A%D9%86%D8%A7%D9%8A%D8%B1) [1198](https://ar.wikipedia.org/wiki/1198) وحتى وفاته. ولد باسم لوتاريو دي كونتي دي سينيي.

يعد إينوسنت الثالث واحدًا من أكثر البابوات نفوذًا وتأثيرًا في تاريخ البابوية، وقد كان له تأثير كبير على أنظمة الحكم [المسيحية في أوروبا](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B3%D9%8A%D8%AD%D9%8A%D8%A9_%D9%81%D9%8A_%D8%A3%D9%88%D8%B1%D9%88%D8%A8%D8%A7)، حيث كان يرى أنه أعلى سلطة من كل ملوك[أوروبا](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D9%88%D8%B1%D9%88%D8%A8%D8%A7)، وقد توسع في استخدام عقوبة الحرمان الكنسي وغير ذلك من العقوبات لإجبار الأمراء على الإذعان لقراراته، غير أن ذلك لم ينجح في جميع الحالات.

دعا إينوسنت الثالث إلى شن [حملة صليبية](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AD%D9%85%D9%84%D8%A9_%D8%B5%D9%84%D9%8A%D8%A8%D9%8A%D8%A9) ضد المسلمين في الأندلس والأراضي المقدسة وضد الهراطقة في جنوب [فرنسا](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%81%D8%B1%D9%86%D8%B3%D8%A7) ([الحملة الصليبية على الكثار](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%85%D9%84%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%84%D9%8A%D8%A8%D9%8A%D8%A9_%D8%B9%D9%84%D9%89_%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%AB%D8%A7%D8%B1))، وكان من أبرز قراراته تنظيم [الحملة الصليبية الرابعة](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%85%D9%84%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%84%D9%8A%D8%A8%D9%8A%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%A7%D8%A8%D8%B9%D8%A9)، التي كان مقررًا لها أن تستهدف الإسلام عن طريق [مصر](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%B5%D8%B1)، لكن الظروف قادتها بدلًا من ذلك إلى التوجه نحو [القسطنطينية](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B3%D8%B7%D9%86%D8%B7%D9%8A%D9%86%D9%8A%D8%A9)، التي هاجمها الصليبيون واقتحموها سنة 600هـ/1204م

البابا **هونوريوس الثالث** ([باللاتينية](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%84%D8%BA%D8%A9_%D9%84%D8%A7%D8%AA%D9%8A%D9%86%D9%8A%D8%A9): Honorius III) ـ (ولد في [روما](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B1%D9%88%D9%85%D8%A7) سنة [1148](https://ar.wikipedia.org/wiki/1148) وتوفي بها في [18 مارس](https://ar.wikipedia.org/wiki/18_%D9%85%D8%A7%D8%B1%D8%B3) [1227](https://ar.wikipedia.org/wiki/1227)) هو [بابا](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A8%D8%A7%D8%A8%D9%88%D9%8A%D8%A9_%D9%83%D8%A7%D8%AB%D9%88%D9%84%D9%8A%D9%83%D9%8A%D8%A9) [الكنيسة الكاثوليكية](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D9%83%D9%86%D9%8A%D8%B3%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%A7%D8%AB%D9%88%D9%84%D9%8A%D9%83%D9%8A%D8%A9) من [18 يوليو](https://ar.wikipedia.org/wiki/18_%D9%8A%D9%88%D9%84%D9%8A%D9%88) [1216](https://ar.wikipedia.org/wiki/1216) إلى [18 مارس](https://ar.wikipedia.org/wiki/18_%D9%85%D8%A7%D8%B1%D8%B3)[1227](https://ar.wikipedia.org/wiki/1227).

وأدرك البابا والغرب الأوربي والصليبيون في الشرق أن الاستيلاء على مصر هو الخطوة المنطقية والضرورية لتأمين وجودهم في بلاد الشام، وبات غزو مصر حتميًّا لضمان استرداد ما حرَّره صلاح الدين من أراضي مملكة بيت المقدس، بل وبيت المقدس ذاته. وهكذا أخذ البابا (إنوسنت الثالث) على عاتقه مهمَّة الدعوة إلى حملة صليبية جديدة يكون هدفها مصر.

وبدأت الاستعدادات لتجميع الحملة الجديدة، بَيْدَ أنَّ مشكلة نقل القوات والعتاد الصليبي الحربي إلى الشواطئ المصرية فرضت على قادة الصليبيين أن يدخلوا في مفاوضات مع جمهورية البندقية التجارية التي كانت تملك أقوى وأكبر الأساطيل العاملة في البحر المتوسط، وتمت المفاوضات، وتوجهت جيوش الصليبيين إلى البندقية لكي تنقلهم سفنها إلى شواطئ مصر، كان ذلك سنة 597هـ/ 1201م، لكن البندقية -التي كانت لها مصالح تجارية مع مصر- رأت أن تحوِّل اتجاه القوات إلى جهة أخرى. وفي أغسطس 1202م وصل إلى البندقية القائد الأعلى للصليبيين بونيفاس دي مونفيرات، وتواطأ بونيفاس مع دوق البندقية على تحويل الهجوم الذي نال تأييدًا مستترًا من بابا الفاتيكان الذي كان يشعر بالكراهية الشديدة للكنيسة الأرثوذكسية، ويريد توحيد الكنيستين: الشرقية والغربية تحت قيادته.

الاستيلاء على القسطنطينية

في القسطنطينية واجه الصليبيون خَصْمًا ضعيفًا؛ فبيزنطة قد أرهقتها الحملات السابقة والإتاوات والضرائب المتزايدة، وتناقص واردات الدولة؛ فوصلوا إلى شواطئها في 11 من شوال 599هـ/ 23 من يونيو 1203م، وبدأت العمليات العسكرية في 23 من شوال 599هـ/ 5 من يوليو 1203م، ففرَّ إمبراطور بيزنطة ألكسيوس الثالث، واقتحم الصليبيون القسطنطينية في (10 من شعبان 600هـ/ 13 من إبريل 1204م)، وسلبوها ونهبوها، وقتلوا أهلها المسيحيين على مدى ثلاثة أيام مرعبة، ثم أرسوا بها دعائم دولة جديدة تكون بديلاً للإمبراطورية البيزنطية، وعقدوا مع حاكمها الجديد معاهدة فصَّلوا بنودها حسب أهوائهم؛ وبذلك انتهت تلك الحملة الصليبية الرابعة بعد أن نسي قادتهم هدفهم الأصلي وهو غزو مصر.

في السنة التي تولى فيها السلطان العادل الأيوبي شقيق صلاح الدين منصب سلطنة [الدولة الأيوبية](http://islamstory.com/ar/%D9%82%D8%B5%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%84%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%8A%D9%88%D8%A8%D9%8A%D8%A9) في القاهرة، أي سنة 596هـ / 1200م، كانت فكرة الاستيلاء على [بيت المقدس](http://islamstory.com/ar/%D9%82%D8%B5%D8%A9_%D8%A8%D9%8A%D8%AA_%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%82%D8%AF%D8%B3) وضرب مصر لا تزال تشغل بال الأوربيين.

وحين رأى [الصليبيون](http://islamstory.com/ar/%D9%82%D8%B5%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%B1%D9%88%D8%A8_%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%84%D9%8A%D8%A8%D9%8A%D8%A9) أن السلطان العادل يفرض نوعًا من الوحدة على أبناء البيت الأيوبي، خافوا أن يعودوا إلى الموقف المرعب الذي عانوا منه كثيرًا أيام [صلاح الدين الأيوبي](http://islamstory.com/ar/%D8%B5%D9%84%D8%A7%D8%AD-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D9%8A%D9%88%D8%A8%D9%89-%D9%82%D8%A7%D8%AF%D9%87-%D9%84%D8%A7-%D8%AA%D9%86%D8%B3%D9%89)؛ لذا بدؤوا يفكرون في حملة صليبيةٍ جديدة.

وأدرك البابا والغرب الأوربي والصليبيون في الشرق أن الاستيلاء على مصر هو الخطوة المنطقية والضرورية لتأمين وجودهم في بلاد الشام، وبات غزو مصر حتميًّا لضمان استرداد ما حرَّره صلاح الدين من أراضي مملكة بيت المقدس، بل وبيت المقدس ذاته.

وهكذا أخذ البابا إنوسنت الثالث  Innocent III (1198م - 1216م) على عاتقه مهمِّة الدعوة إلى حملة صليبية جديدة يكون هدفها مصر [1].

الحملة الصليبية الرابعة
كان البابا إنوسنت الثالث قد أعرب علنًا عن رغبته في الدعوة إلى حرب صليبية جديدة، فكتب في سنة 1199م إلى إيمار بطريرك بيت المقدس يطلب منه تقريرًا وافيًا عن حال المملكة الصليبية التي أصبحت عكا عاصمة لها، وعن أحوال المسلمين وقوتهم في بلاد الشام ومصر. ثم بدأت الاستعدادات لتجميع حملة صليبية جديدة ضد مصر.

ولكي يمهد لنجاح هذه الحملة أصدر مرسوماً يحرم على التجار الأوروبيين التعامل مع المسلمين وحرم عليهم تزويد المسلمين بكل المواد التي تعينهم على القتال المسيحيين وخصوصاً مواد الحديد والخشب وما يستعان به في الحروب.

بدأ بإجراء المفاوضات مع الأمبراطور البيزنطي الكسيوس الثالث لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية، وأعطى تعليماته إلى فلك ده نولي  Fulk de Neuilly، وهو قس ساذج، يدعو الملوك والسوقة إلى حرب صليبية رابعة. ويحث أهل الريف على الإنخراط في الحرب المقدسة وحمل السلاح لاستعادة بيت المقدس من أيدي المسلمين، واحتلال مصر.

وانضم عدد كبير من البارونات للاشتراك في هذه الحملة بغرض امتلاك أراضي جديدة بعيدة جداً عن أوروبا وليس بدافع من الدين فقط.

بيد أن مشكلة نقل قوات الحملة وعتادها إلى الشواطئ المصرية فرضت على الصليبين أن يدخلوا في مفاوضات شاقة مع جمهورية البندقية التجارية، التي كانت تملك أسطولا من أقوى الأساطيل العاملة في البحر المتوسط آنذاك لنقل الصليبيين، فاتفقوا على أن ينوب عنهم في تلك المفاوضات جفرى هاردوين في الاتفاق على تأجير سفن لنقل جنود الحملة إلى سواحل الشام، وسافر جفرى إلى جنوه وفاوض المسؤولين فيها لمساعدتهم.

ووافقت البندقية بعد مساومات طويلة، على أن تعد ما يلزم لنقل 4500 من الفرسان والخيول، و9000 من أتباعهم، وعشرين ألفاً من المشاة، وما يكفي هذه القوة من المؤن تسعة شهور، كل هذا في نظير 85 ألف مارك من فضية كولونية. ورضيت أيضاً أن تمدهم بخمسين سفينة حربية بشرط أن تختص جمهورية البندقية بنصف الغنائم الحربية، وأقسم دوق البندقية هنري داندلو وجفري هاردوين على تنفيذ هذه الاتفاقية التي عقدت بينهما في يونيه 1202م ثم شرع الصليبيون في المجئ إلى البندقية لكي تنقلهم بالسفن إلى المشرق [2].

موقف البندقية من الهجمات الصليبية على مصر

والغريب أن البنادقة لم يكن في نيتهم تقديم مساعدة ما لمهاجمة مصر، نظراً للامتيازات الكثيرة، والجليلة التي منحها الملك العادل للتجار الإيطاليين في مصر، حتى أن الدوق هنري داندلو حاكم البندقية أوفد سفراءه إلى القاهرة في نفس الوقت الذي كان ساوم الصليبيون حول نقل الحملة، وثم عقد اتفاق تجاري في ربيع سنة 1202م / 598هـ مع نائب الملك العادل، وقد أكد الدوق داندلو لمبعوث الملك العادل أنه لن يساعد أي حملة تتجه إلى مصر [3].

الحملة ضد القسطنطينية سنة 599هـ/ 1203م
على أي حال كانت أحداث الحملة الصليبية الرابعة مزيجا من المأساة والملهاة، فقد كان هدفها الأساسي مصر، وفي سنة597هـ/ ١٢٠١م توجهت مختلف الفرق الصليبية إلى البندقية لكي تنقلهم السفن إلى الشواطئ المصرية، ولكن الصليبين بعد سنة من هذا التاريخ كانوا يفرضون حصارهم على [القسطنطينية](http://islamstory.com/ar/%D9%85%D8%AD%D9%85%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D9%81%D8%A7%D8%AA%D8%AD-%D9%88%D9%81%D8%AA%D8%AD-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B3%D8%B7%D9%86%D8%B7%D9%8A%D9%86%D9%8A%D8%A9) العاصمة المسيحية، بدلًا من القاهرة العاصمة الإسلامية. ففي ٢٤ يونيو ١٢٠٣م كان الأسطول قد رسا في مياه خلقدونية قبالة القسطنطينية [4].

في 24 يونيه 1203م 600هـ وصلت سفن الحملة أمام القسطنطينية، ولم يتخذ الإمبراطور الكسيوس الثالث أي تدابير لمنع وصول جنود الحملة إليه، واعتقد الصليبيون والبنادقة فيما قاله الكسيوس الصغير من أن بيزنطة كلها سوف تهب للترحيب به ولكن الدهشة استبدت برجال الحملة حينما اكتشفوا أن جميع أبواب القسطنطينية أغلقت في وجوههم، وأن الجنود البيزنطيين مرابطون فوق أسوارها وفشلت المحاولات الأولى التي قام بها أسطول الصليبيين لمهاجمة الأسوار وبعد قتال عنيف تمكن البنادقة من فتح ثغرة بالأسوار في 17يوليو.

الصليبيون يدمرون القسطنطينية
وأثناء ذلك حدثت عدة اضطرابات داخلية أدت غلى اعتلاء الكسيوس الخامس إمبراطورًا للقسطنطينية في رجب 600هـ / فبراير سنة 1204م، وقد وقف الكسيوس الخامس موقفاً مضاداً من الصليبيين وأيدا الاتجاه الشعبي الكاره لهم، وأمام ذلك التطور اتجاه الصليبيون إلى مهاجمة القسطنطينية.

شن الصليبيون هجومهم ضد القسطنطينية، وفي 602هـ / مارس ١٢٠٤م كانوا يرسون دعائم دولة جديدة تحل محل الإمبراطورية البيزنطية بمعاهدة فصلوها على أهوائهم. وفي ١٣ أبريل 1204م تم اقتحام المدينة، وقد حل بالمدينة القتل والسلب والنهب والتدمير على مدى ثلاثة أيام مرعبة، فقُتل الكثير من البيزنطيين واغتصبت الراهبات في الأديرة، ودخل الجنود الذين لعبت الخمر برؤوسهم كنيسة آيا صوفيا، يقول ابن كثير رحمه الله: "فِي هَذِهِ السَّنَةِ (600هـ) كَانَتِ الْفِرِنْجُ قَدْ جَمَعُوا خلقا منهم ليستعيدوا بيت المقدس من أيدي المسلمين، فأشغلهم الله عن ذلك بقتال الروم، وذلك أنهم اجْتَازُوا فِي طَرِيقِهِمْ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فَوَجَدُوا مُلُوكَهَا قَدِ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَحَاصَرُوهَا حَتَّى فَتَحُوهَا قَسْرًا، وأباحوها ثلاثة أيام قتلا وأسرا، وأحرقوا أَكْثَرُ مِنْ رُبْعِهَا، وَمَا أَصْبَحَ أَحَدٌ مِنَ الروم في هذه الأيام الثَّلَاثَةِ إِلَّا قَتِيلًا أَوْ فَقِيرًا أَوْ مَكْبُولًا أَوْ أَسِيرًا، وَلَجَأَ عَامَّةُ مَنْ بَقِيَ مِنْهَا إلى كنيستها العظمى المسماة باياصوفيا، فقصدهم الْفِرِنْجُ فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ الْقِسِّيسُونَ بِالْأَنَاجِيلِ لِيَتَوَسَّلُوا إِلَيْهِمْ ويتلوا ما فيها عليهم، فما التفتوا إلى شيء من ذلك، بَلْ قَتَلُوهُمْ أَجْمَعِينَ أَكْتَعِينَ أَبْصَعِينَ وَأَخَذُوا مَا كَانَ فِي الْكَنِيسَةِ مِنَ الْحُلِيِّ وَالْأَذْهَابِ وَالْأَمْوَالِ الَّتِي لَا تُحْصَى وَلَا تُعَدُّ، وَأَخَذُوا مَا كَانَ عَلَى الصُّلْبَانِ وَالْحِيطَانِ، وَالْحَمْدُ للَّه الرَّحِيمِ الرَّحْمَنِ، الَّذِي مَا شَاءَ كان".

وقد تمنى أحد مؤرخيهم نيكتاس خونياتس أن تسقط مدينته على أيدي المسلمين؛ لأنهم ما كانوا ليفعلوا بها ما فعل اللاتين.

ومن الملاحظ أن زعماء وقادة الحملة الصليبية الرابعة نقلوا العديد من التحف والنفائس التي بيعت في أسواق دمشق، والقاهرة وحلب، وكذلك الأسواق الأوروبية حتى أن الجياد البرونزية الأربعة التي كانت تزين ميدان السباق في العاصمة البيزنطية، قام داندلو بحملها إلى البندقية، وحتى اليوم تزين واجهة كاندرائية القديس مارك في فينيسيا، دليلاً على واحدة من أكبر عمليات السلب والنهب التي شهدتها القرون الوسطى.

وهكذا؛ يثبت لنا الصليبيون من جديد، أنهم أهل قتل، وتدمير، وسلب ونهب، وها هي مدينة قسطنطين الرائعة تتعرض للمصير المأساوي الذي تعرضت له مدينة بيت المقدس منذ ما يزيد على القرن من الزمان، غير أن الفارق الجوهري أن بيت المقدس كانت مدينة مقدسة للسيادة الإسلامية، أما القسطنطينية فهي مدينة مسيحية وعاصمة الإمبراطورية البيزنطية الإرثوذكسية، والتي قامت بدور درع المسيحية الشرقية في مواجهة الإسلام لعدة قرون وفي هذا دليل واضح على أن الصليبيين في سبيل أطماعهم الجشعة التي لا تحد، لم يفرقوا بين مدن إسلامية أو مسيحية.

إننا لأول مرة منذ أعلان مشروع أوربان الثاني 489هـ / 1095م، نجد أن الحركة الصليبية تتجه إلى تلك الوجهة وتسقط عاصمة أكبر إمبراطورية مسيحية في المنطقة على مدى المرحلة الواقعة من القرن العاشر الميلادي / الرابع الهجري إلى القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري، وطوال هذه القرون لم تسقط بيزنطة على أيدي الفرس والروس، والنورمان، والمسلمين وغيرهم، إلا أن سقوطها كان على يد قوة مسيحية ممثلة في الغرب الأوروبي، ولذلك لا عجب والأمر كذلك أن تعتبر عام 1204م/602هـ عامًا فارقًا في تاريخ الحملات الصليبية [5].

الهجوم على رشيد المصرية
ومع أن إنوسنت الثالث أدان انحراف الحملة عن هدفها، إلا أنه سرعان ما بلع احتجاجاته حين رأى

أن سقوط عاصمة قسطنطنطين تحت سنابك الخيول الصليبية يمكن أن يحقق أمل البابوية القديم في السيطرة على الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية. ولكن بعض الذين لم تعجبهم خطط الإغارة على العاصمة البيزنطية، وتغيير هدف الحملة واصلوا حتى شواطئ بلاد الشام. وهناك تعاونوا مع الصليبين المستوطنين لشن هجوم هزيل ضد مدينة رشيد المصرية ومدينة فوة القريبة منها. وقد ظلوا في عاراتهم سنة ٦٠٠ هـ/ ١٢٠٤م خمسة أيام.

معاهدة مع الملك العادل
وسرعان ما أدرك الصليبيون في [عكا](http://islamstory.com/ar/%D8%B9%D9%83%D8%A7-%D8%AA%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D8%AE-%D8%B9%D9%83%D8%A7-%D9%88%D9%85%D8%B9%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%87%D8%A7-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%B6%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D9%87) استحالة قدوم حملة صليبية لنجدتهم، ومن ثم سعى ملك عكا أمالريك الثاني ( Amalric II ) لعقد هدنة مع السلطان العادل الأيوبي الذي رحب بعقد الهدنة نظرا لازدهار التجارة ومكاسبها في حال السلم من ناحية، وبسبب متاعبه الداخلية مع بقية الأيوبيين من ناحية أخرى. وتم عقد هدنة مدتها ست سنوات في أواخر سنة ١٢٠٤م.

يقول [ابن كثير](http://islamstory.com/ar/%D8%A7%D8%A8%D9%86_%D9%83%D8%AB%D9%8A%D8%B1_%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%A7%D9%81%D8%B8_%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%81%D8%B3%D8%B1) رحمه الله: "ثُمَّ إِنَّ الْفِرِنْجَ قَصَدُوا بِلَادَ الشَّامِ وَقَدْ تَقَوَّوْا بِمُلْكِهِمُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ، فَنَزَلُوا عَكَّا وَأَغَارُوا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ مِنْ نَاحِيَةِ الْغُورِ وتلك الأراضي، فقتلوا وسبوا، فنهض إليهم العادل وكان بدمشق، واستدعى الجيوش المصرية والشرقية وَنَازَلَهُمْ بِالْقُرْبِ مِنْ عَكَّا، فَكَانَ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ شديد وحصار عظيم، ثُمَّ وَقَعَ الصُّلْحُ بَيْنَهُمْ وَالْهُدْنَةُ وَأَطْلَقَ لَهُمْ شيئا من البلاد فانا للَّه وإنا إليه راجعون" [6].

نتائج الحملة الصليبية الرابعة
كان للحملة الصليبية الرابعة نتائج عديدة منها:

أ- كان للحملة الرابعة تأثير بالغ على مسار المشروع الصليبي بأكمله، ويكفي أنه نتج عنه سقوط القسطنطينية لأول مرة في تاريخها منذ أن شيدها قسطنطين الكبير وافتتحها عام 330م، وبالتالي فقد أدت الحملة الصليبية الرابعة إلى تغيير خريطة التوزيعات السياسية لشرق أوروبا إلى حد كبير وأزالت السيادة البيزنطية قسمتها إلى عدة مناطق وأعادت تركيب المنطقة على أساس المصالح الاقتصادية، والسياسية الجديدة.

ب- إن تلك الحملة جعلت الكثيرين من الصليبيين في بلاد الشام يقدمون إلى الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية، بحثاً عن غنائم لهم على نحو أضعف الكيان الصليبي في بلاد الشام.

جـ- ظهر العامل الاقتصادي ليمثل عنصراً مؤثراً في تلك المرحلة، ولا ريب في أن الدور البندقي الفعال والتنافس مع الإمبراطورية البيزنطية حسم لصالح البندقية.

د- إن النكبة التي نكبت بها الإمبراطورية البيزنطية عام 1204م/602هـ أدت إلى التمهيد -بصورة أو بأخرى- لحدوث الإنهيار النهائي لها على أيدي الأتراك [العثمانيين](http://islamstory.com/ar/%D9%82%D8%B5%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AE%D9%84%D8%A7%D9%81%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%AB%D9%85%D8%A7%D9%86%D9%8A%D8%A9) عام 1453م/ 857هـ في عهد قسطنطين الحادي عشر (1449م - 1453م/853 - 857هـ) في عهد السلطان [محمد الفاتح](http://islamstory.com/ar/%D9%85%D8%AD%D9%85%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D9%81%D8%A7%D8%AA%D8%AD-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B3%D8%B7%D9%86%D8%B7%D9%8A%D9%86%D9%8A%D9%87)، ونستطيع وصف مرحلة القرنين والنصف قرن بين التاريخين المذكورين بأنها مرحلة احتضار بيزنطي طويل الأجل انتهى بأن خرجت بيزنطة بعده من التاريخ بجدارة، مثلما دخلته من قبل بجدارة أيضاً، وأصبحت عاصمة الدولة العثمانية وعادت إلى مركز الريادة العالمي من جديد وساهمت في اشعاع نور الحضارة والعلم والمعرفة في أنحاء المعمورة.

والجدير بالذكر هنا؛ أن البيزنطيين تمكنوا من استعادة عاصمتهم الجريحة في عام (1261م / 660هـ) على يدي ميخائيل الثامن باليولوغوس (1259 - 1282م) حيث استمرت المملكة اللاتينية هناك من (1204م / 602هـ إلى 1261م / 660هـ) سبعة وخمسين عامًا غير أن الإمبراطورية البيزنطية العائدة لم تكن قط نفس تلك الإمبراطورية السابقة، لقد عادت ظلاً شاحبًا بعد أن هدها الغزو اللاتيني لمدينة القسطنطينية [7].

الحملة الصليبية الخامسة

المشرق الإسلامي قبل الحملة الصليبية الخامسة

دور البابا هوونريوس في الحملة الصليبية الخامسة

**ـ**حصلت [الحملة الصليبية الخامسة](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%85%D9%84%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%84%D9%8A%D8%A8%D9%8A%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%AE%D8%A7%D9%85%D8%B3%D8%A9) على الدعم من مجمع لاتيران الي انعقد سنة [1215](https://ar.wikipedia.org/wiki/1215)، وبدأ هونوريوس في الإعداد لإطلاق هذه الحملة سنة [1217](https://ar.wikipedia.org/wiki/1217). وقد فرض البابا على نفسه وعلى الكاردينالات المساهمة بعُشر دخلهم لثلاث سنوات لتغطية النفقات الهائلة التي تطلبتها تلك الحملة، كما فرض على بقية رجال الدين المساهمة بجزء من اثني عشر جزءًا من دخولهم. ورغم أن هذا القرار أدى إلى جمع مبالغ كبيرة من المال، إلا أن هذه المبالغ لم تكن كافية لتمويل الحملة الصليبية الشاملة التي كان يصبو إليها هونوريوس الثالث.

رأى هونوريوس أن الرجل الوحيد في [أوروبا](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D9%88%D8%B1%D9%88%D8%A8%D8%A7) القادر على القيام بمهمة استرداد الأرض المقدسة هو تلميذه السابق [الإمبراطور فردريك الثاني](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%81%D8%B1%D9%8A%D8%AF%D8%B1%D9%8A%D9%83_%D8%A7%D9%84%D8%AB%D8%A7%D9%86%D9%8A_%28%D8%A5%D9%85%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D8%B7%D9%88%D8%B1_%D8%B1%D9%88%D9%85%D8%A7%D9%86%D9%8A_%D9%85%D9%82%D8%AF%D8%B3%29) إمبراطور ألمانيا. وكان فردريك الثاني وحكام آخرون قد قطعوا على أنفسهم عهدًا سنة [1217](https://ar.wikipedia.org/wiki/1217) باسترداد الأرض المقدسة، غير أن فردريك الثاني حنث بالعهد فاضطر هونوريوس الثالث مجددًا إلى تأجيل موعد انطلاق الحملة.

في [أبريل](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D8%A8%D8%B1%D9%8A%D9%84) [1220](https://ar.wikipedia.org/wiki/1220) انتخب فردريك الثاني إمبراطورًا، وفي [22 نوفمبر](https://ar.wikipedia.org/wiki/22_%D9%86%D9%88%D9%81%D9%85%D8%A8%D8%B1) [1220](https://ar.wikipedia.org/wiki/1220) توج [إمبراطورًا رومانيًا مقدسًا](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A5%D9%85%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D8%B7%D9%88%D8%B1_%D8%B1%D9%88%D9%85%D8%A7%D9%86%D9%8A_%D9%85%D9%82%D8%AF%D8%B3) في مدينة [روما](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B1%D9%88%D9%85%D8%A7).

ظل فردريك الثاني على تخاذله رغم ضغوط هونوريوس الثالث وإصراره، وفشلت الحملة على [مصر](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%B5%D8%B1) باسترداد المسلمين لمدينة [دمياط](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AF%D9%85%D9%8A%D8%A7%D8%B7) في [8 سبتمبر](https://ar.wikipedia.org/wiki/8_%D8%B3%D8%A8%D8%AA%D9%85%D8%A8%D8%B1) [1221](https://ar.wikipedia.org/wiki/1221).

كان معظم حكام أوروبا منهمكين في حروبهم الخاصة ولم يكن بإمكانهم ترك بلادهم لفترات طويلة. وبعد طول انتظار تحرك الملك [أندرو الثاني](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D9%86%D8%AF%D8%B1%D9%88_%D8%A7%D9%84%D8%AB%D8%A7%D9%86%D9%8A) ملك [المجر](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AC%D8%B1) وتبعه إقلاع أسطول صليبي من منطقة أسافل [نهر الراين](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%86%D9%87%D8%B1_%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%A7%D9%8A%D9%86) نحو الأرض المقدسة. وقد استولوا على [دمياط](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AF%D9%85%D9%8A%D8%A7%D8%B7) وبضعة أماكن أخرى في مصر، ولكن قواتهم افتقرت إلى الوحدة ومزقها التنافس والصراعات بين قادتها وبين بيلاجيوس ـ ممثل البابا ـ مما أدى إلى فشل الحملة.

تعدى هذا الخلاف إلى طور الحرب والقتال مما استدعى تدخل الملك محمد أبي بكر الأيوبي الملقب بالعادل، أخي صلاح الدين، ورفيقة على درب الجهاد المقدس من البداية، وكان من أكثر الناس حزمًا وسياسة وعدلاً، فاستطاع أن يقضي على هذا الخلاف، وأن يتخذ الخطوة الصحيحة في هذا الظرف الراهن، فأعاد توحيد الجبهة الشامية والمصرية تحت إمرته وعادت للبلاد وحدتها وقتها. (في ذلك درس وعبرة وعظة لمنْ يرغب في البحث عن أسباب النجاح، وتجني عوامل الفشل مهما كانت قوة البلاد، وتقدمها طالما كانت متفرقة ومختلفة فإن الهزيمة والفشل هو طريقها ولو بعد حين)

 ـ ورغم حكمة الملك العادل الأيوبي ورؤيته لما جرى للبلاد عندما تقسمت بين أبناء صلاح الدين، وحجم الخلاف الذي وقع بينهم إلا أنه لم يستفد من هذا الدرس المجاني من أبناء أخيه، وأقدم على نفس الخطأ فقسم البلاد بين أبنائه الثلاثة كالآتي:

 ـ الأمير محمد الملقب بالكامل: على الديار المصرية وفلسطين.

 ـ الأمير عيسى الملقب بالمعظم: على دمشق وباقي الشام.

 ـ الأمير موسى الملقب بالأشرف: على منطقة الجزيرة 'بين الشام والعراق'.

 ونظرا لاستمرار الحملات الصليبية على الشام ومصر لم يظهر بين هؤلاء الثلاثة خلافات بسبب تصديهم للحملات الصليبية واشتغالهم بقتال الأعداء عن الخلافات المتوقعة.

الإعداد للحملة الصليبية الخامسة

 البابا انوسينت الثالث دشن الحملة الصليبية الخامسة

لم يكف أبدًا الباباوات في روما عن إثارة عزائم وحفائظ ملوك وأمراء أوروبا من أجل استئناف سلسلة الحملات الصليبية، التي هدأت قليلاً بعد وفاة صلاح الدين والفشل المدوي للحملة الصليبية الرابعة، التي بدلاً من أن تتجه لقتال المسلمين بالشام، اتجهت إلى قتال النصارى الأرثوذكس بالقسطنطينية وذلك سنة 600هـ، واستغل البابا 'أنوسنت' الثالث فرصة موت الملك المجاهد العادل الأيوبي وحشد جيشًا كبيرًا يقوده الفارس 'جان دي بريين' وكان مرشح البابوية ليكون ملكًا على بيت المقدس إذا استعادها من المسلمين.

الحملة الصليبية الخامسة

معركة دمياط كانت سببا في إنهاء الحملة الصليبية الخامسة بفشل ذريع وخسارة ضخمة على الرغم من غياب القيادة الإسلامية الصالحة في ذلك الوقت, واستمرت معركة دمياط لأكثر من ثلاث سنوات، ولكن ما هي الأسباب الحقيقية التي كانت وراء مجيء الحملة الصليبية الخامسة لبلاد المسلمين؟ وكيف صمدت المقاومة الإسلامية أمامهم؟

هذهالمعركة هي أشبه ما يكون بالملاحم الأسطورية التي تروى كضرب من الخيال والإمتاع،ذلك لأنها استمرت أكثر من ثلاث سنوات، وكان بابا روما "أنوسنت الثالث"يخطط ويدبر لحملة صليبية جديدة على بلاد الإسلام بعد وفاة الناصر صلاح الدين،وبالفعل انطلقت الحملة الصليبية الرابعة سنة 600هـ، ولكنها غيرت مسارها واتجهت إلىالقسطنطينية لإخضاع الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية لسلطان الكنيسة الغربيةالكاثوليكية، وبالجملة فشلت هذه الحملة فشلاً ذريعًا، لذلك نجد معظم المؤرخينالأوربيين يعرض عن ذكر هذه الحملة ولا يضعها أصلاً في عداد الحملات الصليبية.

ولم يفت الفشل الذريع لهذه الحملة في عضد البابا "أنوسنت الثالث" الذي أخذ في التحضير لحملة جديدة على بلاد الإسلام يشترك فيها من لم تتلطخ يداه في الحملةالسابقة، فلبى النداء كل من "ليوبولد" ملك النمسا، و"أندريه الثاني"ملك المجر، و"بهمايو" ملك قبرص وغيرهم، وقد تقرر تغيير خط سير الحملات المعتادة، حيث كانت مصر هي الهدف هذه المرة وليست الشام، وذلك لأسباب عديدة منها ضرب مركز الثقل في العالم الإسلامي وهي مصر، ومنها رغبة المدن التجارية الإيطالية في السيطرة على تجارة البحر المتوسط، وضرب التجارة المصرية في عقر دارها بالاستيلاء على ميناء دمياط الذي كان أهم موانئ الشرق، وأهمها بالتأكيد استعادة بيت المقدس.

وقبلأن تنطلق الحملة الصليبية الخامسة هلك البابا "أنوسنت الثالث" وخلفه البابا "هونوريوس الثالث" الذي أراد أن يؤكد على نفوذ وسيادة الكنيسة الكاثوليكية على الحملة، فأرسل الكاردنيال البرتغالي "بلاجيوس" ليكون القائد العام للحملة على الرغم من انعدام الخبرة والكفاءة الحربية لهذا الرجل،وهذا ما سيدفع الصليبيون ثمنه غاليًا بعد ذلك.

كانت بلاد الشام ومصر في هذه الفترة تحت حكم الأسرة الأيوبية وكبيرها الملك العادل أبي بكر الأيوبي وهو أخو الناصر صلاح الدين ورفيق كفاحه وشريك جهاده ضد الصليبيين ،فلما وصلت أخبار الحملة الصليبية الخامسة للملك العادل وكان بالشام وقتها, أسرع وعسكر بجنوده عند مدينة "بيسان" بالأردن، ذلك لأن الحملة الصليبية قدنزلت بميناء "عكا" وكان ما يزال وقتها تحت السيطرة الصليبية، ولم تكن الحملة وقتها تنوي التوغل في بلاد الشام بل كانت تنوي الانتقال من "عكا" إلى "دمياط"، ولكن حدث أن انفصل ملك المجر "أندريه الثاني" ومعه عدد كبير من الصليبيين عن الحملة وعاد إلى بلاده، فضعفت الحملة وانتظرت قليلاً حتى يأتيها الإمدادات من غرب أوربا.

خلال هذه الفترة أخذ الصليبيون في الإغارة على قرى ومدن الشام لجمع المؤن والأموال،والملك العادل الأيوبي لا يقوى على ردهم لضخامة جيوشهم، وعاثوا في الشام فسادًا، في حين اجتهد العادل الأيوبي وبنوه الأمراء الثلاثة (محمد - موسى – عيسى) في حفظ أهم مدن الشام من عدوان الصليبيين، وفي أول سنة 615هـ - 1218م، اتجهت الحملة الصليبية بكامل قوتها إلى ميناء دمياط ونزلوا على الميناء في موقع اسمه "جيزة دمياط" وهي مثالية من وجهة النظر الدفاعية وليس الهجومية، وكان هذا التحول القتالي مفاجأة مذهلة للسلطان العادل وابنه الأمير محمد الملقب بالكامل والذي كان واليًا على مصر، فخرج الأمير محمد بالجيش المصري للدفاع عن دمياط، وكان مفتاح دمياط برجًا منيعًا في غاية القوة والصلابة فيه سلاسل من حديد ضخمة تمتد بطول النيل لتمنع أي مراكب تريد الإغارة على البلاد من هذا الطريق.

ظلال وضع متجمدًا طيلة أربعة أشهر، الصليبيون يحاولون اقتحام برج السلسلة والجيش المصري يدافع عن دمياط بكل قوة حتى استطاع الصليبيون الاستيلاء على البرج بعد معركة طاحنة مع المدافعين عنه، ولما وصلت أنباء سقوط البرج للسلطان العادل الأيوبي تأوه لذلك بشدة وأصابه الحزن وقتله الهم في 7 جمادى الآخرة سنة 615هـ.

بعد سقوط برج السلسلة حاول الأمير الكامل حاكم مصر إعاقة تقدم الصليبيين، فصنع جسرًا عظيمًا أنفق عليه سبعين ألف دينار، فقاتل الصليبيون عليه قتالاً عنيفًا حتى قطعوه ،فأمر الكامل بتفريق عدد من المراكب في النيل ليسد مجرى السفن، فعدل الصليبيون إلى خليج هناك يعرف بالأزرق وكان النيل يجري فيه قديمًا، فحفروه حفرًا عميقًا وأجروا فيه المياه إلى البحر المتوسط، مما يوضح مدى إصرار الصليبيين على القتال وصبرهم على ذلك، ولكن الوضع ظل متجمدًا بين الصليبيين والجيوش المصرية.

ظلت المقاومة الإسلامية للصليبيين على أشدها باسلة رائعة، ولكن وقعت حادثة غيرت مسار القتال عندما تآمر أحد الأمراء المماليك واسمه "عماد الدين ابن المشطوب "على السلطان الكامل حاكم مصر ووارث مكان أبيه السلطان العادل، وذلك من أجل عزله وتولية أخيه الأمير "الفائز" مكانه، فترك السلطان الكامل معسكر الجيش في دمياط وعاد إلى القاهرة لتدارك الفتنة، وعندما علم الجنود قرار قائدهم تركوا جميعًا المعسكر، وأصبحت المدينة مفتوحة أمام الصليبيين.

لميكن السلطان الكامل مثل أعمامه الأبطال صلاح الدين وغيره، فلقد كان يميل للمهادنة والدعة والمسالمة، يكره القتال، شديد الذعر في ميادين القتال، بالجملة لم يكن رجل الساعة أو فارس المناسبة، فلما رأى اقتراب الصليبيين من احتلال دمياط عرض عليهم عرضًا لا يصدقه عقل حتى يرجعوا عن دمياط، حيث عرض عليهم تسليم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين، وهكذا قرر الكامل أن يشتري السلام بالتنازل عن كل ما فتحه صلاح الدين بدماء الشهداء وجهاد السنين..

ولكن واصل الصليبيون قتالهم حتى اقتحموا المدينة في 25 شعبان 616هـ، وارتكبوا واحدة من مذابحهم المروعة الشهيرة، قتلوا خلالها جميع أهل دمياط وطمسوا معالم الإسلام فيها، وحولوها إلى مدينة صليبية خالصة، ولكن نشب الخلاف بينهم بحيث مضى عام ونصف وهم غير قادرين على القيام بأية عمليات عسكرية حاسمة، وانتهى الخلاف بأن خرج القائد العسكري "حنا برين" من دمياط عائدًا إلى بلاده مغاضبًا، وأصبح الأحمق "بلاجيوس" القائد الوحيد للحملة.

خلال هذه الفترة استقرت الأمور في البيت الأيوبي واصطلح الإخوة الثلاثة (محمد الكامل -عيسى المعظم - موسى الأشرف) وانتهت المشاحنات بينهم واتفقوا على مواجهة الصليبيين ،وقد عسكر السلطان الكامل عند مدينة المنصورة في مكان حصين شيده الكامل في فترة الهدوء الصليبي، ودعا الناس إلى التطوع لصد الصليبيين عن مصر وشن المسلمون هجمات متتالية على المعسكر الصليبي وأسروا سبع سفن صليبية كبيرة والكثير من الجنود..

وتضعضع موقف الصليبيين ولكن وصول قوات صليبية جديدة من ألمانيا شجع الكاردنيال الأحمق "بلاجيوس" على تنفيذ خطته للزحف نحو القاهرة بعد أن تأخرت كثيرًا، ولكنه اختار الوقت غير المناسب حيث فيضان نهر النيل، فوجد الصليبيون أنفسهم والماء قد أغرق أكثر الأرض التي هم عليها، ووجدوا أنفسهم محاصرين بالجيش المصري جنوبًا والجيش الشامي من ناحية الشمال، وهم قد تركوا معسكرهم الحصين بدمياط عندما خرجوا للقاهرة بأمر الأحمق "بلاجيوس"، وأصبح وضع الصليبيين شديد التأزم، وألقي الرعب في قلوبهم وركبتهم الذلة والصغار، واضطر المغرور "بلاجيوس" إلى طلب الصلح والهدنة، على أن يخرجوا من دمياط بغير عوض.

اختلف قادة معسكر المسلمين حول طلب الهدنة، ففي حين وافق عليها الكامل، رأى إخوته وآخرون انتهاز الفرصة والقضاء على الصليبيين، ولكن السلطان الكامل المذعور بطبعه من أيقتال وافق على العرض، وفي يوم الأربعاء 19 رجب سنة 618هـ/ سبتمبر 1221م، دخل المسلمون المدينة الأسيرة، وهكذا انتهت الحملة الصليبية الخامسة بفشل ذريع وخسارة ضخمة على الرغم من غياب القيادة الإسلامية الصالحة لهذا الظرف.

هزيمة الحملة الصليبية الخامسة

تولي الكامل بعد ابيه العادل سنة 615 هج/ 1218م في ظروف حرجة حيث استولي الصليبيون علي دمياط ، فراح يستجد بالمسلمين من حوله ، و لكن حكام المسلمين كانوا في هول من هجمات المغول التي  بدأت تدق أبواب بغداد بعد أن اكتسحت جحافلهم بخاري و سمرقند و بالكاه و حولتها إلي خرائب ، و سوت القصور و المكتبات و المدارس و المساجد بالأرض و استعملتها اصطبلات للخيل.

لذلك عمد السلطان الكامل إلي أن يتصل بالصليبيين ليفاوضهم و عرض عليهم أن يتنازل عن بيت المقدس مقابل أن يخرج الصليبيون من دمياط. و لم يتردد إمبراطور فريدريك في أن يقبل

هذا العرض السخي. و لكن البابا في روما رفض العرض و وبخ الإمبراطور فريدريك علي قبوله العرض. فعرض السلطان الكامل عرض أسخي و هي أن يتنازل عن نابلس و صيدا و عسقلان و طبرية و اللاذقية و سائر ما فتحه السلطان صلاح الدين من بلاد الساحل. و لكن البابا رفض هذا كله و هدد فريدريك أن ينزع منه مملكته في أوروبا إذا عقد صلحاً مع المسلمين. فلم يبق للسلطان الكامل إلا ان يقاتل ليحرر دمياط من الصليبيين.

كان الموقف ينبئ بانتصار الصليبيين فهم أكثر سلاحا وعدة ،و لكنهم لم يكونوا يعرفون طبيعة الأرض المصرية و ما تمتلئ به من قنوات الماء. فلما تقدم الصليبيون قليلاً قام المصريون بفتح سدود المياه من كل جانب فتدفقت المياه و أغرقت القوات الصليبية في بحر من الوحل و لم يستطيعوا التقدم خطوة واحدة ،فشقوا طريقهم وسط الوحلة مرتدين إلي الشاطئ و استقلوا سفنهم عائدين إلي بلادهم سنة 1221، و بذلك فشلت الحملة الصليبية الخامسة.

تنازل السلطان الكامل عن القدس للصليبيين

ظل السلطان الكامل علي خوفه من الصليبيين الذين بدأوا يستهدفون مصر في حملاتهم، و ظل يلوح لهم برغبته في الصلح و السلام و ظل يلح عليهم أن يأخذوا القدس مقابل أن يتركوه آمناً مطمئناً ، و في النهاية قبل فريدريك الثاني قائد الحملة الصليبية السادسة علي مصرعرض السلطان الكامل و تسلم منه القدس مقابل عدم شن هجمات صليبية جديدة علي مصر.

يروي المقريزي فيقول : إن الملك الكامل أرسل رجاله فنودي بالقدس بخروج المسلمين منها لتسليمه إلي الفرنج ….فاستعظم المسلمون ذلك ، و أكبروه ، ووجدوا من الوهن و التألم مالا يمكن وصفه. …فاشتد البكاء و عظم الصراخ و العويل ، و حضر الأئمة و المؤذنون من القدس إلي مخيم الكامل ، و أذنوا علي بابه في غير وقت الآذان .

السلطان الكامل يعقد صلحاً مع الإمبراطور فريدريك الثاني

و دخل فريدريك القدس و استلمها من القاضي شمس الدين يوم الأحد 18 مارس 1229 م 626 هج، و دخل كنيسة القيامة و توج نفسه ملكاً علي القدس. و بذلك عادت القدس للصليبيين مؤقتاً حتي جاء نجم الدين أيوب و استردها مرة أخري كما سنري

أكمل السلطان الكامل بناء قلعة الجبل ، كما أنشأ مدينة جديدة هي مدينة المنصورة في الموقع الذي انتصر فيه  علي الحملة الصليبية الخامسة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

[1] قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، كتاب عالم المعرفة مايو 1990م، ص125.
[2] ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمُود وآخرين، الناشر: دار الجيل، بيروت - لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، عام النشر: 1408هـ - 1988م، 15/ 46- 47.
[3] ول ديورانت: قصة الحضارة، 15/ 47.
[4] قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص122.
[5] ابن كثير: البداية والنهاية، الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1407هـ - 1986م، 13/ 36- 37.
- محمد مؤنس عوض: الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، الطبعة الأولى 1999/ 2000م، ص266- 269.
- قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص121- 122.
[6] قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص122- 123.
[7] محمد مؤنس عوض: الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص273- 275.
- علي الصلابي: الأيوبيون بعد صلاح الدين، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر، الطبعة: الأولى، 1/ 147- 150.

مقدمات الحملة الصليبية السادسة

**دور البابا غريغوري التاسع** في الحملات الصليبية

 ولد البابا غريغوري في سة 1145م-وتوفي في 22 أغسطس 1241م)واسمه الحقيقي اوجلينو دي كونتي, تقلد الباباوية في 19 مارس 1227م وحتى وفاته.

بعد ترقيته إلى كرسي البابوية في ختام الانتخابات البابوية عام 1227م، قام [كونراد فون ماربورغ](https://ar.wikipedia.org/w/index.php?title=%D9%83%D9%88%D9%86%D8%B1%D8%A7%D8%AF_%D9%81%D9%88%D9%86_%D9%85%D8%A7%D8%B1%D8%A8%D9%88%D8%B1%D8%BA&action=edit&redlink=1) بتكليف غريغوري التاسع بالقضاء على [الهرطقة](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D9%87%D8%B1%D8%B7%D9%82%D8%A9) في كل أنحاء [ألمانيا](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D9%84%D9%85%D8%A7%D9%86%D9%8A%D8%A7). برعاية غريغوريوس، أصبح كونراد قاتل ترعاه الدولة وقام بمسلسل من الإرهاب في الريف لم يتوقف إلا عن طريق اغتياله في 1233م.

وما ان لبس غريغوري رداء الباباوية حتى بدا بتوجيه الانتقادات اللاذعة إلى الامبراطور الألماني [فردريك الثاني](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%81%D8%B1%D9%8A%D8%AF%D8%B1%D9%8A%D9%83_%D8%A7%D9%84%D8%AB%D8%A7%D9%86%D9%8A_%28%D8%A5%D9%85%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D8%B7%D9%88%D8%B1_%D8%B1%D9%88%D9%85%D8%A7%D9%86%D9%8A_%D9%85%D9%82%D8%AF%D8%B3%29) واتهمه بالمماطلة في تنفيذ وعوده بشن حرب صليبية جديدة على الاراضي الفسلطينية وقد وصل الامر إلى [الحرمان الكنسي](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AD%D8%B1%D9%85%D8%A7%D9%86_%D9%83%D9%86%D8%B3%D9%8A) واعلان ان فردريك خارج عن رحمه الكنسية. وأخيراً أدرك فريدريك الثاني أن مصلحته تستدعي القيام بحملة صليبية على فلسطين، فتشكلت بقيادته الحملة الصليبية السادسة سنة 1228 وانطلقت إلى المشرق.

ووصل عكا على رأس قوة صغيرة حيث لم يقصد الحرب، وإنما اعتمد على الأساليب الدبلوماسية والمفاوضات للحصول على كسب سريع. وتمكن فريدريك الثاني في يافا من عقد معاهدة مع السلطان الأيوبي الكامل، حصل فيها على القدس وبيت لحم وشريط ساحلي ضيق في فلسطين، وبذا حقق نصراً عجزت عنه الحملات الصليبية الكبيرة التي وفدت إلى فلسطين بعد تحرير القدس سنة 1187م على يد صلاح الدين الأيوبي، وتوج فريدريك نفسه ملكاً على القدس عام 1129. لم تطل إقامة فريدريك الثاني في فلسطين، بل عاد بسرعة إلى إيطاليا فوجد قوات البابا غريغوري التاسع قد استغلت فرصة غيابه وأغارت على أملاكه في جنوبي إيطاليا، بل بلغ الأمر بالبابا أن أذاع خبر موت الامبراطور في المشرق ليضعف مركزه في إيطاليا وألمانيا. ولما وصل الامبراطور الألماني إلى إيطاليا اضطر البابا لعقد الصلح معه، وبمقتضى هذا الصلح رفع عنه قرار الحرمان من رحمة الكنيسة، وسمي هذا صلح «سان جرمانو» (1230م)، وقد استمر النزاع بين البابوية والامبراطورية حتى وفاة الامبراطور فريدريك الثاني في إيطاليا وهو في طريقه لمواجهة خصومه في شمالي إيطاليا

كانت [الحملة الصليبية الخامسة](http://islamstory.com/ar/%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%85%D9%84%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%84%D9%8A%D8%A8%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AE%D8%A7%D9%85%D8%B3%D8%A9) ضد [دمياط](http://islamstory.com/ar/%D9%85%D8%B9%D8%B1%D9%83%D8%A9-%D8%AF%D9%85%D9%8A%D8%A7%D8%B7-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%85%D9%84%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%84%D9%8A%D8%A8%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AE%D8%A7%D9%85%D8%B3%D8%A9) آخر محاولات البابوية لتوجيه حملة صليبية تحت قيادتها فقط ولحسابها منفردة. ومن ناحية أخرى فإن [الحملات الصليبية](http://islamstory.com/ar/%D9%82%D8%B5%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%B1%D9%88%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%84%D9%8A%D8%A8%D9%8A%D8%A9) في القرن الثالث عشر الميلادي اتخذت طابعا مخالفا لحملات القرن الثاني عشر الميلادي . ف[الحملة الصليبية الثانية](https://readtiger.com/islamstory.com/ar/%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%85%D9%84%D9%87-%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%84%D9%8A%D8%A8%D9%8A%D9%87-%D8%A7%D9%84%D8%AB%D8%A7%D9%86%D9%8A%D9%87) جاءت رد فعل على سقوط [الرها](http://islamstory.com/ar/%D8%B9%D9%85%D8%A7%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%86-%D8%B2%D9%86%D9%83%D9%89-%D9%88%D8%AA%D8%AD%D8%B1%D9%8A%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%B1%D9%87%D8%A7) سنة 539هـ / ١١٤٤م في يد [عماد الدين زنكي](http://islamstory.com/ar/%D8%B3%D9%84%D8%B3%D9%84%D8%A9-%D9%82%D8%B5%D8%A9-%D8%B9%D9%85%D8%A7%D8%AF)، كما أن [الحملة الصليبية الثالثة](http://islamstory.com/ar/%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%85%D9%84%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%84%D9%8A%D8%A8%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AB%D8%A7%D9%84%D8%AB%D8%A9) كانت استجابة للكارثة التي حاقت بالصليبيين في [فلسطين](http://islamstory.com/ar/palestine-home) بعد معركة  [حطين](http://islamstory.com/ar/%D9%85%D8%B9%D8%B1%D9%83%D8%A9-%D8%AD%D8%B7%D9%8A%D9%86-%D9%88%D9%85%D8%A7-%D8%A8%D8%B9%D8%AF%D9%87%D8%A7) وسقوط  [بيت المقدس](http://islamstory.com/ar/%D9%82%D8%B5%D8%A9_%D8%A8%D9%8A%D8%AA_%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%82%D8%AF%D8%B3)  سنة 583هـ / ١١٨٧م.

أما حملات القرن الثالث عشر الميلادي فكانت نتيجة الضعف الدائم الذي ألم بالمستوطنات الصليبية، ولم تبرأ منه منذ عمليات [صلاح الدين الأيوبي](http://islamstory.com/ar/%D8%B5%D9%84%D8%A7%D8%AD-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D9%8A%D9%88%D8%A8%D9%89-%D9%82%D8%A7%D8%AF%D9%87-%D9%84%D8%A7-%D8%AA%D9%86%D8%B3%D9%89) على الرغم من أن فرنج الشرق لم يواجهوا أي خطر حقيقي طوال فترة [الدولة الأيوبية](http://islamstory.com/ar/%D9%82%D8%B5%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%84%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%8A%D9%88%D8%A8%D9%8A%D8%A9)  بعد وفاة صلاح الدين. وعلى الرغم من أن شواطئ فلسطين شهدت في هذا القرن موجات متصلة من الفرسان والمغامرين وشذاذ الآفاق والباحثين عن الفرص تحت راية الصليب، وعلى الرغم من أن بعض هذه الموجات كانت عاتية تضم فيالق من الفرسان والمحاربين وبعضها كان أقرب إلى الرذاذ الخفيف إلا أن هذا المدد المتواصل لم يستطع أن يقدم شيئا للكيان الصليبي الذي كان يمضي إلى نهايته المحتومة.

ولأن فشل حملة دمياط كان ضربة موجعة لهيبة البابوية، فقد أخذ البلاط البابوي يضغط بشدة من أجل شن حملة صليبية جديدة. ولن ندخل في تفاصيل التقلبات السياسية في أوروبا آنذاك. ولكن ما يهمنا أن الصليبيين في فلسطين لم يحاولوا الإفادة من سياسة المهادنة التي اتبعها السلطان الكامل الأيوبي أو أن يستجيبوا لها، وكذلك كان حال البابوية.

الإمبراطور الألماني فردريك الثاني II Frederick
كان موقف الإمبراطور الألماني فردريك II Frederick  (١٢١٥م - ١٢٥٠م) مختلفا; فقد أبدى استعدادا واضحا للإفادة من هذه الروح السلمية البادية في موقف السلطان الكامل الأيوبي. ويرجع السبب في ذلك إلى فردريك الثاني نفسه إذ لم يكن صليبيا مثل غيره من ملوك أوروبا اللذين قادوا الحملات الصليبية. لقد كان هذا الإمبراطور  الذي عرف باسم أعجوبة الدنيا صقليا تربى في ظل مظاهر الحضارة العربية التي فرضت نفسها في كل مكان من جزيرة [صقلية](http://islamstory.com/ar/%D8%AC%D8%B2%D9%8A%D8%B1%D9%87-%D8%B5%D9%82%D9%84%D9%8A%D9%87-%D9%81%D9%89-%D8%B8%D9%84-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D9%84%D8%A7%D9%85) التي نشأ في أحضانها.

ولم يكن الإسلام بالنسبة له مجرد كتاب مغلق كما أن المسلمين لم يكونوا مجرد قوم من الكفار يستحقون الموت. فقد كان ذلك الإمبراطور يكن للمسلمين ودينهم وحضارتهم تقديرا كبيرا. وكان واسع العلم غزير المعرفة يجيد من لغات الدنيا آنذاك ست لغات هي العربية واليونانية واللاتينية والإيطالية والألمانية والفرنسية.

وكان فردريك الثاني قد تولى عرش الإمبراطورية الرومانية سنة 612هـ/ ١٢١٥م، وأخذ شارة الصليب في تلك السنة لكي يضمن تأييد البابا إنوسنت الثالث له في عرش الإمبراطورية، بيد أنه كان عازفًا عن القيام بحملة صليبية؛ لأنه كان يطمح إلى بسط نفوذه على كل إيطاليا بما فيها أملاك البابوية ومدن الشمال التجارية الغنية؛ ولذلك أخذ يماطل في الوفاء بنذره الصليبي بأن يقود حملةً كبيرةً إلى الأراضي المقدسة، ولكن زواجه من يولاندا ابنة الملك الصليبي الراحل يوحنا بريين ملك عكا، جعل منه ملكًا على بيت المقدس ومسئولاً عن الصليبيين في الشرق.

وفي عام 624هـ / 1227م أراد فريدرك أن يلبي رغبة البابا، فأبحر من ميناء برنديزي (جنوب إيطاليا) على رأس حملة ضخمة ولكن الحمى أصابته، كذلك انتابت صفوف الجيش نوبة مرض مدة قصيرة من الزمن أثناء انتظارهم لعبور البحر، فعاد فردريك لكي يسترد صحته، وأثناء ذلك مات هو نوريوس الثالث، وتولى جريجوري التاسع، فاعتقد أن فرديك يتمارض ويتعمد المراوغة فأصدر قرار حرمان من الكنيسة ضده. لقد فتح قرار الحرمان باب النزاع بين الطرفين الإمبراطور والبابا ولكن الإمبراطور أدرك أن مصلحته تقتضي القيام بحملة على بلاد الشام حتى يفوت على البابا إظهاره في صورة مسيحي عاق.

ويبدو أن ظروف الشرق هيأت الجو للإمبراطور للقيام بحملته، كذلك، فإن شخصية الإمبراطور وافقت عقلية الملك الكامل وشخصيته، إذ توثقت العلاقات بينهما في عصر اشتد فيه العداء بين ملوك الصليبيين والمسلمين، وازدادت الحركة الصليبية عنفاً، إلا أن شخصية الملكين وما كان يحيط بهما من ظروف كان لها أثر كبير في توثيق هذه العلاقة الودية.

قدوم الحملة الصليبية السادسة
أقلع الإمبراطور بحملته الصليبية في صيف 625هـ /1228م على رأس جيش صليبي صغير قوامه ستمائة فارس فقط، وأسطول هزيل، استجابة للدعوة التي تلقاها من الملك الكامل بمنحه القدس، ولم ينس أنه خرج من بلاده محروماً من الكنيسة، وأنه اعتمد وعود الكامل له بإعطاء بيت المقدس لذلك لم يحضر جيشاً قويا.

عرج فردريك الثاني على قبرص في طريقه إلى [الشام](http://islamstory.com/%D9%81%D8%AA%D9%88%D8%AD-%D8%A7%D9%84%D8%B4%D8%A7%D9%85/)، واستقبل استقبالاً طيباً، وأصبحت الجزيرة تابعة له وفقاً لقانون الإقطاع الحرماني، ثم  أبحر في قبرص قاصداً عكا، فوصلها بعد أربعة أيام، ولعله من الغريب أن البابا أخذ يعمل على ألا ينجح الإمبراطور فردريك الثاني في احتلال بيت المقدس، حتى لا يكسبه ذلك شرفاً ونصراً بعد ما حرم، بل أن البابا حرض الملك الكامل على عدم تسليم المدينة المقدسة للإمبراطور. كما استغل الإمبراطور وفاة الملك المعظم سنة 624هـ / 1226م فقام سنة 625هـ / 1227م بالاستيلاء على صيدا التي كانت مناصفة بين المسلمين والإفرنج.

المفاوضات بين الملك الكامل والإمبراطور فردريك الثاني
عندما وصل الإمبراطور فردريك إلى [عكا](http://islamstory.com/ar/%D8%B9%D9%83%D8%A7-%D8%AA%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D8%AE-%D8%B9%D9%83%D8%A7-%D9%88%D9%85%D8%B9%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%87%D8%A7-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%B6%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D9%87) بعث رسوله إلى الملك الكامل، وأمره أن يقول له: "الملك يقول لك: كان الجيد والمصلحة للمسلمين أن يبذلوا كل شيء .. ولا أجيء إليهم والآن فقد كنتم بذلتم لنائبي -في زمن حصار دمياط- الساحل كله، وإطلاق الحقوق بالإسكندرية وما فعلناه وقد فعل الله لكم ما فعل من ظفركم، وإعادتها إليكم، ومن نائبي؟ إن هو إلا أقل غلماني، فلا أقل من إعطائي ما كنتم بذلتموه له".

وحار الملك الكامل في الموقف الذي يجب أن يتخذه من الإمبراطور لأنه هو الذي دعاه إلى الشام، وألح عليه في المجيء إليها ليناصره على أخيه المعظم، واعداً إياه بقسم من أملاك هذا الخصم، فلما وصل إليها لم يعد في حاجة إلى مساعدته لأن المعظم كان قد توفي، وغدت الأملاك الموعودة جزءاً من مملكته وأصبح من واجبه أن يدافع عنها، إن لم يكن بعامل الرغبة في المحافظة عليها فبعامل الحفاظ على سمعته أمام جماهير المسلمين يصف ابن واصل الموقف فيقول: "تحير الملك الكامل، ولم يمكنه دفعه ولا محاربته، لما كان تقدم بينهما من الاتفاق". ومن هنا أراد الكامل أن يطيل أمد المفاوضات بينه وبين فردريك.

وأدرك الإمبراطور أن موقف الملك الكامل أصبح على غير ما كان ينتظر، ولم يبق للإمبراطور فردريك الثاني أمام هذا الموقف الحرج سوى سلاح المفاوضة والاستعطاف واستخدام كافة وسائل الدبلوماسية للوصول إلى غرضه والعودة إلى الغرب الأوروبي مرفوع الرأس، فأرسل إلى الملك الكامل سفارة من رسولين تحمل له هدايا نفيسة من منسوجات حريرية وأواني ذهبية وفضية، مطالباً إياه بتحقيق وعده تسليم بيت المقدس، غير أن السلطان الكامل بادله بالرفض.

وإزاء تنكر الكامل لوعوده، ساء موقف فردريك الثاني لاسيما بعد أن جاءته الأخبار من الغرب بأن البابا استغل فرصة غيابه واعتدى على ممتلكاته، فأخذ يرجو الملك الكامل ويستعطفه، حتى قيل أنه كان يبكي في بعض مراحل المفاوضات وليس أدل على تذلل الإمبراطور من الكلام الذي جاء في رسائله إلى الملك الكامل: "أنا أخوك واحترام دين المسلمين احترامي لدين المسيح، وأنا وريث مملكة القدس، وقد جئت لأضع يدي عليها، ولا أروم أن أنازعك ملكك، فلنتجنب إراقة الدماء". واستمر الإمبراطور في الاستعطاف، ولم تلبث الاستعطافات أن أتت أكلها وأفلحت في التأثير في الكامل.

وأثناء ذلك شرع فردريك الثاني في عمارة صيدا وقام بتحصين يافا، وكان ذلك بمثابة مظاهرة عسكرية، جعلت الملك الكامل يخشى قيام فردريك وبقية الجموع الصليبية بالشام بعمل حربي ضده، وهو الشعور الذي فسره [المقريزي](http://islamstory.com/ar/%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%82%D8%B1%D9%8A%D8%B2%D9%8A-%D9%85%D8%A4%D8%B1%D8%AE-%D9%85%D8%B5%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D9%84%D8%A7%D9%85%D9%8A%D8%A9) بقوله: "إن الكامل خاف من عائلته عجزاً عن مقاومته". وكان الدخول في حرب ضد الإمبراطور والصليبيين عندئذ تعني بالنسبة للملك الكامل وقوعه بين ثلاثة أعداء هم: (الصليبيين، وابن أخيه الملك الناصر داود من ناحية، والخوارزمية التي استنجد بها الناصر داود من ناحية ثانية). وفي ضوء هذه الحقائق كلها، وتحت تأثير رسول الملك الكامل في المفاوضات الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ، تنازل عن بيت المقدس.

صلح يافا .. هدنة العشر سنوات
أخيراً عقد الملك الكامل في ربيع الأول 626هـ/ فبراير 1229م اتفاقية مع الإمبراطور فردريك الثاني، عرفت بصلح يافا، وكتبت صيغة الاتفاقية باللغتين العربية والفرنسية، ووقع عليها الطرفان وحلفا على التزامها ووقع الإمبراطور عليها بعد أسبوع، فيما وقع على بنودها الملك الكامل في الوقت نفسه، على أساس أن يتسلم الإمبراطور مدينة القدس، وبيت لحم، وشريطًا من الأرض يصل بين عكا والقدس، ويبقى في حوزة المسلمين المسجد الأقصى وقبة الصخرة والمناطق الريفية، وفي المقابل يتعهد فردريك بمنع أي حملة صليبية طوال عشر سنوات من أوربا.

وسرعان ما وضعت هذه الاتفاقية موضع التنفيذ، فنودي بالقدس بخروج المسلمين منه، وتسليمه إلى الفرنج، وأعلن فردريك الثاني في جنوده: "أشكروا الله واحمدوه، إذ أتم عليكم نعمته، وإن إتمامها كان معجزة من الله وليس نتيجة الشجاعة أو الحروب، وما أتمه الله لم تستطع قوة من البشر على الأرض إتمامه لا بكثرة العدد، ولا بالقوة ولا بأية وسيلة أخرى".

وبعد أن تُوِّج فردريك الثاني ملكًا على مملكة بيت المقدس الصليبية عاد في رجب 626هـ/ يونيو ١٢٢٩م إلى أوربا بمكاسب لم تستطع أية حملة أخرى قبله أن تحققها منذ الحملة الأولى في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، مع أنه كان يقود أضعف الحملات.

ويبدو جليًّا لنا أن هذه النتائج لم يكن لها أن تتحقق لولا تنازل الملك الكامل الذي فرَّط في أراضي المسلمين لصديقه الملك الصليبي بدون مقابل؛ وذلك حتى يُحسِّن فردريك وضعه في أوربا. ولا شك أن هذه الأحداث تعكس طبيعة متهاونة للملك الكامل في حقوق المسلمين، تُكرِّس الصورة التي ظهرت خلال الحملة الخامسة عندما انسحب تاركًا العادلية ودمياط للصليبيين.

موقف العالم الإسلامي من تفريط الكامل
أما العالم العربي الإسلامي فقد رأى -بحق- أن الهدنة التي عقدها الكامل الأيوبي كارثة حقيقية. وكان رد الفعل الشعبي عنيفا ضد السلطان الذي بعث سفراءه إلى كل مكان لتبرير فعلته. وقد علق [ابن الأثير](http://www.islamstory.com/ar/%D8%A7%D8%A8%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%AB%D9%8A%D8%B1-%D9%88%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%A7%D9%85%D9%84-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D8%AE) على ذلك بقوله: "واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه. يسر الله فتحه وعوده إلى المسلمين بمنه وكرمه، آمين".

وقال ابن الأهدل: "وللكامل هفوة جرت منه -عفا الله عنه- وذلك أنه سلمَّ مرة بيت المقدس إلى الفرنج اختياراً نعوذ بالله من سخط الله وموالاة أعداء الله".

السلطان الصالح نجم الدين أيوب
وفي سنة ٦٣٥ ه/ ١٢٣٩م مات السلطان الكامل، وبعد عدة تقلبات في الأحوال اعتلى عرش السلطنة في القاهرة ابنه السلطان [الصالح نجم الدين أيوب](http://islamstory.com/ar/%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%84%D9%83_%D8%A7%D9%84%D8%B5%D8%A7%D9%84%D8%AD_%D9%86%D8%AC%D9%85_%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%86_%D8%A3%D9%8A%D9%88%D8%A8) سنة ٦٣٨ه/ ١٢٤٠م. وفي غمرة الحرب الأهلية والمنازعات التي اندلعت بين الأيوبيين في بلاد الشام ومصر والجزيرة، والتي انتهت باعتلاء الصالح أيوب عرش مصر، انتهت الهدنة ذات السنوات العشر.

معركة غزة
وكان البابا جريجوري التاسع Gregory IX يستعد لهذا الموقف منذ صيف سنة 637هـ / 1239م، ولم تلق جهوده استجابة كبيرة سوى في فرنسا حيث تجمع عدد من نبلائها تحت زعامة تيبالد الشامباني ملك نافار  Theobald de Champagne، وبعد رحلة عاصفة في الموسط وصلت هذه الحملة إلى عكا في أول سبتمبر. وفي غضون أسابيع قليلة تجمع جيش قوامه حوالي ألف من الفرسان. وفي نوفمبر من السنة نفسها (637هـ / 1239م) التقى هذا الجيش مع الجيش المصري قرب مدينة غزة في معركة قاسية كانت الهزيمة فيها من نصيب الصليبيين الذين تفرقوا بين أسير وقتيل.

استعادة الصالح أيوب بيت المقدس
كان التنازل عن بيت المقدس صدمة مزلزلة للمسلمين، الذين ترحَّموا على صلاح الدين وجنوده المجاهدين الذين بذلوا أرواحهم من أجل تحريره؛ ليأتي ذلك الملك الخانع الكامل الأيوبي ليتنازل عنه لشرذمة من الصليبيين دون أي مقاومة. ومن ثَمَّ كان من أهم آمال المسلمين إعادة تحرير الأقصى.

وقد قيَّض الله للأمة السلطان المجاهد نجم الدين أيوب، الذي عمل على تحرير المقدسات؛ واستطاع بفضل الله أن يحرِّر المسجد الأقصى بمعاونة جنوده الخوارزميين في 3 من صفر 642هـ / 11 من يوليو 1244م؛ ليتحرر [المسجد الأقصى](http://islamstory.com/ar/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B3%D8%AC%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D9%82%D8%B5%D9%89) نهائيًّا من أيدي الصليبيين، ولم يجرؤ جيش صليبي أن يدخلها مدة سبعة قرون، حتى دخلها الإنجليز خلال الحرب العالمية الأولى عام 1914م، وقبل أن يحتلها الصهاينة عام 1948م.

وقد كان الملك الصالح نجم الدين حاكمًا صالحًا، ومجاهدًا في سبيل الله، يحب العلم، ويقدّر العلماء، وهو مَن استضاف سلطان العلماء [العز بن عبد السلام](http://islamstory.com/ar/%D8%B3%D9%84%D8%B7%D8%A7%D9%86_%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%84%D9%85%D8%A7%D8%A1_%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B2_%D8%A8%D9%86_%D8%B9%D8%A8%D8%AF_%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%84%D8%A7%D9%85) رحمه الله بعد أن ضيَّق عليه الخائن الصالح إسماعيل سلطان دمشق، وكان نجم الدين يلتزم برأي العز، ولا يخالفه؛ لذا لمَّا أعلمه بوجود حانات للخمور أسرع بإغلاقها. وبالجملة كان نجم الدين أيوب أفضل حاكم أيوبي بعد صلاح الدين.

وفي سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م تواترت الأنباء عن قرب قدوم حملة جديدة تحت راية الصليب ضد مصر بقيادة لويس التاسع Louis IX  ملك فرنسا بهدف احتلال مصر، وتلك كانت الحملة الصليبية السابعة.

المراجع:

- قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة (149)، مايو 1990م.
- علي الصلابي: الأيوبيون بعد صلاح الدين، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر، الطبعة: الأولى.